عمر الخيام

يحسن بى قبل أن أتكلم عن الخيام أن أذكر أن الشعر مرآة الحياة تنعكس فيها صور الكائنات فتبدو للناظرين نمودجا حقيقياً لها ، وهو ككل الفنون يحتاج إلى إنشاء وإبداع وإعجاب . فأما الانشاء فيحدثه الخيال ، وأما الإبداع فيأتى به الذوق ، وأما الاعجاب فيولده الجمال

إذاً لابد للشعور من هذه اللوازم . ومتى توفرت فيه كان على النفس والياً وعلى الفؤاد سيدا وعلى الحس مسيطرا . ووجه الشعور كما يشاء ، فبكاه ان بكى ، وغناه ان غنى ، وفرحه إن فرح ، وأحزنه إن حزن .

وأمامنا الآن شاعر عظيم صاغ فى قالب من الدر تجاريب حياته وملاحظاتها جلدت لآلىء نفيسة وجواهر مكنونة . هذا الشاعر هو عمر الخيام الفيلسوف الفلكى الفارسى الذى بقيت آيات تفكيره بضعة قرون منهلا عذبا لطالب الحياة والزاهد فيها ، وراغب اللذات والمعرض عنها . والذى أبت الأيام من بعده أن تنحلنا بمثله يجيد فيا يتناوله منالما أعاد ، ويرى الناس قيمة الحياة منالما أرى . ولولا أنى أخاف من الاتهام بالنبوة لقلت بفراغ نوعه من الصفحات الباقية فى الحياة .

ولد الخيام بنيسابور إحدى بلاد خراسان — من أبوين شعبيين فلم يكن أبوه أميراً ولا والياً بل كان رجلا رقيق الحال ينفق أعظم الجهود فى الحصول على ضروريات أسرته . كذلك أمه كانت فقيرة مرنتها الحادثات على الصبر والمجالدة ومصارعة نوائب الزمن حتى احتفظت بكيان ولدها ، وأشعرته براحة العيش مدة طفولته . وكأن العناية الالهية أوصت الى هذين الوالدين أن يعتنيا بعمر حتى يأخذ حظه من الثقافة ، ثم يصبح بعد ذلك علماً من الأعلام وقمة فى سماء الشهرة . ولقد حققت الظروف ظن الوالدين فجعلت من عمر الفقير أعلم أهل زمانه ، وأكثرهم شغفاً بالحقيقة ، وأبقاهم ذكراً فى صفحات الخلود . ولا لوم على الظروف إذا فعلت ذلك فقد تعودنا أن تخرج من الأكواخ نبت العظماء ، ومن القصور جراثيم الانحلال والفساد . وإن نظرة واحدة الى أفذاذ التاريخ تحقق لنا ماقلنا ، وتذهب اليأس عمن يضيقون ذرعاً بهذه الحياة ،

تتلمذ الخيام للإمام النيسابورى شيخ اللغويين بخراسان ، وأستاذ الكثير من رجال العلم والسياسة فحبا الخيام بفضله ، وخصه برعايته ، وألف بينه وبين اثنين من تلاميذه : هما نظام الملك وزير السلطان ألب أرسلان والحسن بن الصباح زعيم الاسماعيليين . فنمت بين الثلاثة أواصر المحبة والصداقة والاخاء ، وشعر كل منهم بحاجة إلى أخيه

فى الحال والمستقبل ، وأخذوا يتباحثون فى مصير كل منهم بعد التخرج ونظره إلى زميليه إن أصاب مالا أو عزا أو جاها وحرمان هذه الميزات . وأخيرا اتفقوا على أن من ينال منهم خيرا فلا بد من أن يعاون الفقير فيهم ، وعاهدوا الله على ذلك . ثم أتموا مهمة التعليم ورحل كل منهم إلى الجهة التى أرادها لنفسه ؛ ومرت الأعوام ، وجاهد كل منهم فى الحصول على مثله الأعلى ، حتى أسندت الوزارة إلى نظام الملك فجاءه صاحباه يطلبان منه البر بما عاهده الله عليه . فسعى لدى السلطان حتى عين الحسن فى إحدى وظائف الدولة غير أن الأخير كان طموحا إلى المعالى بطبيعته . ميالا إلى المجازفة فى سبيل العظمة ، وإلى الاغتصاب إن لم ينل طلبه بالطرق المشروعة . لم يكتف الحسن بهذا بل ترك منصبه ورحل إلى إمارة أخرى واشتغل بالدس والكيد لأميرها وضم إليه الخونة من رجال الأمير حتى تغلب عليه واغتصب منه الأمارة . ثم اشترك فى الحروب الصليبية ونال فيها انتصارات عظيمة فذاع صيته وملأ الآفاق ؛ وأصبح اسمه أداة رهبة للجميع ، وسمى رجاله بالحشاشين إذ كان ينشر هذه المادة المخدرة بينهم حتى يسوقهم كما يريد .

وهكذا أدركته الرقمة بعد الانحطاط ، والشهرة بعد الخمول .

أما عمر الخيام فلم يكن ميالا إلى الخوض فى جو السياسة المضطرب ، ولا راغبا فى عز ولا سلطان بل كان رجل علم . يود من المادة ما يحفظه من الهلاك ؛ يحب من أعمال الدنيا ما يوصله إلى تعرف أسرار الوجود ، ويبعده عن المظاهر الخداعة ، والخيالات الكاذبة .

لم يطلب الخيام من نظام الملك شيئا ذا خطر ولا أمرا عسيرا . كلا . بل كان زاهدا عن مثل ذلك . فأنه لما ذهب إلى الوزير قال له : لست أبغى لديك من أن تدعنى أتقبأ ظرفا من ظلال نعمتك الفيحاء . لأنشر ضياء العلم وأدعوك بطول العز والبقاء : وقد كان لزاما عليه أن يطلب مثل هذا الطلب فى تذلل وخشوع بل إن اضطرته الحال إلى لثم يد نظام الملك فلا لوم عليه ولا تنديد ؛ فقد اضطرته غريزة حب البقاء إلى أن يعلن عن حاجته بصراحة حيث أن صناعة الخيام لم تدر عليه الربح ويليتها لم تحل دون استزادته من العلم . بل كانت وبالاعلى آماله ، وعارا على فؤاد طموح كفؤاده . وفى ذلك يقول . إن الخيام قد وقع فى تنور الحزن فأحرقته ناره ؛ وقد قطع مقراض النحس أطناب حياته ، وباع سمسار الأمل عمره فى سوق التلف بلا ثمن .

أراني قد أطلت عليك فى وصف حالة الخيام المعاشية فاعذرنى فى ذلك . إذ أن لهذا النحس الذى لازمه دخلا كبيرا فى فلسفته وآثاره الفكرية . وأرجو أن أوفق إلى تبيانه فيما بعد .

أما نظام الملك فقد أنجز ماوعد به فأكرم وفادته وأجاب بغيته وخصص له ألفا ومائتى مثقال من الذهب كانت تدفع له من خزانة نيسابور فى كل عام

ولقد اطمأن الخيام إلى هذه الهبة كل الاطمئنان ، وفرح بها كل الفرح ، واكتفى بها كل الاكتفاء ، وأصبح لا عذر له فى الانقطاع عن الافادة والاستفادة ، فاتخذ له مكانا للمباحثة كان يقصده الطلاب من كل صوب ينهلون من مورد أستاذهم العذب ويتمتعون بثمرات أفكاره اليانعات . وكان كلما تقدمت به الأيام كملت آلته وكثر رواده حتى ذاع صيته وملأ الشرق فأدى إليه كل من عرفه واجب الاجلال لعظمة النبوغ ، ولم يشذ عن ذلك سوى جماعة المتصوفين والذين من طبعهم محاربة العلم والعلماء . أما المتصوفون فلأنه هاجم عقائدهم هجوما عنيفا ، وأما المشاكسون فلا حيلة لنا فى تكييف نفسياتهم .

مكث الخيام على هذا النمط ما بقى له من سنى حياته ، ولا يفوتنى فى هذا المقام — كما فاتنى من قبل — أن أذكر أنه لم يعرف تاريخ ميلاده بالضبط وإنما الذى عرف هو أنه ولد فى الشطر الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى ، وتوفى عام ألف ومائة وثلاثة وعشرين بعد الميلاد أى أنه عاش حوالى الستين بالتقريب ثم أسلم الروح إلى بارئها ، فانقضت بذلك حياة حافلة بالآمال واليأس ، والانتصار والهزيمة ، والرضا والغضب . حياة لم تر إلا البؤس يغازلها ، وسوء الطالع يلازمها فسكنت لحكم القضاء ، ورضخت لسيطرة الظروف ، وأخيرا لما لم تجد من الدنيا عطفا ولا حنانا ترجمت عن آلامها ثم فرت إلى حيث الخلود الابدى والنعيم المقيم

كان الخيام مثالا للجد والنشاط فى عمله منذ الصغر فقد اعتاد المجاهدة من والديه والبيئة المحيطة به . إلا أن انقطاعه إلى طلب العلم غلب فيه روح المعانى على روح الماديات ، فاعتنى بعقله حتى قربه من درجة الكمال وساعده على ذلك استعداده الطبيعى لاستساغة المعلومات وهضمها فكان حاد الذكاء خصب القريحة سريع الحفظ صادق الذاكرة حريصا على حب الحقيقة والجرى وراءها وبذل الجهود لضمها إليه والعمل على ارضائها . ولا ريب فى أن هذه الأشياء مجتمعة هى التى خلقت منه رجلا ذا عقيدة ثابتة ونفس شاعرة وحجة قوية وجرأة نادرة وخلقت منه ساخرا مما يدور فى الدنيا من المكائد وطمع الانسان فى زينتها وزخارفها ، وإن يكن قد نسب إليه إدمان الشراب لما جاء فى أشعاره خاصا بالخمر فان الكثير يبرئونه من تعاطيها ، وعلى فرض أنه كان يتعاطاها فان هذا لا يمنعنا من الاعتراف بزهده فى الدنيا ونظره الفلسفى اليها

وسنكتفى الآن بذكر ما تقدم من حياة هذا الرجل العبقرى تاركين البحث فى آرائه ونظر الباحثين إليها لنتمه فى العدد القادم إن شاء الله

محمد رشاد عبد الفتاح
مدرس بمدرسة ميت غمر الأولية الثانوية